

فقلت :

وهم على هذا زهاء ⁽¹⁾ أربعين أو واحد ⁽²⁾ وأربعين رجلا ، فأين تمام الخمسين ؟ وعد السبعة الذين قال إنهم رجال مشورته ، ولعلمهم منتقون من الخمسين .

قال :

هم : أبو سليمان ، من هرغة ؛ وأبو الحسن ، من أهل تينمل ؛ وأبو وزغيع بن ياموهل بن ياجان ، من أهل تينمل ؛ وأبو واور يغور بيوركن ، من تينمل أيضا ؛ وقطران بن ما غليفة ، من هنتاة ؛ وأبو محمد سكاته ، وأبو عمران موسى بن واحدين ، من مزالة ، ومزالة من هنتاة .

قال ابن صاحب الصلاة :

[12 أ] وكان له - رضي الله تعالى عنه - رجال يخدمونه * في داره ، يسمون أهل الدار ⁽³⁾ من أصحابه ، يختصون به في ليله ونهاره ، وهم المعروفون بأهل الدار .

= في تاريخ الدولة الموحدية ، وعلى هذا الكتاب يعتمد المؤرخون المتأخرون مثل صاحب روض القرطاس وابن الأبار وابن الخطيب وابن خلدون وصاحب الحلل الموشية والمقري ، وقد كان هذا الكتاب يتألف من ثلاثة أجزاء لا يوجد منها الآن إلا الجزء الثاني المحفوظ في المكتبة البودليانية بأكسفورد (رقم 758) وهو يشمل أحداث الدولة الموحدية من سنة 554 (1158 م .) حتى سنة 580 (1184 م .) ؛ وقد وقف على تحقيق هذا الكتاب ونشره مع دراسة شاملة السيد الزميل البحاث المغربي الأستاذ عبد الهادي التازي ، بيروت (1964) ، (انظر عن هذا المؤرخ وكتابه الأستاذ بونس بويجس المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ص 245 - 246 والمراجع المذكورة) .

(1) في الأصل : زهاد ..

(2) في الأصل إحدى .

(3) عن أهل الدار قارن ما أورده ابن القطان هنا نقلا عن ابن صاحب الصلاة بما أثبتته البيهقي (ص 29) ، وفيه زيادة عما هنا واختلاف في بعض الأسماء .

أخصهم به : عبد الواحد بن عمر ، وأبو محمد وسنار ⁽¹⁾ بن محمد ، وأبو محمد عبد العزيز ، وأبو موسى عيسى ، وعبد الكريم أفغو .

..... (2) فطالما كنتم في أيام زناته ، يأتي الرجل إلى داره ، فيجد الزناتي (3)

[يأمره] بإمساك فرسه على باب الدار ؛ فما شبعتم الخبز إلا في أيامنا ، ولا اكتسبتم المال إلا في دولتنا ! وكلاما كثيرا مثل هذا . فاعترفوا بالخطأ ، واشتغلوا له بغرمه إلى أن استوفاه بعد أن غرم فيه العمى والمبايطيل ، ثم كلفهم حصة كثيرة بسلاحها .

باب أخبار سنة ست عشرة وخمسمائة :

من أخبار هذه السنة ابتداء لإعلام الإمام المعصوم المهدي المعلوم - رضي الله تعالى عنه - بإعلان أمره العزيز ومبايعة الناس له .

مقدمة لأيامه العظيمة بذكر جمليات

من أموره الكريمة رضي الله عنه

نسبه (3) :

هو محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان

ابن سفيان * بن صفوان بن جابر بن عطاء بن رباح بن محمد بن الحسن بن علي (3) ابن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم .

وقيل مثل ذلك سواء إلى عدنان ، فنسب هكذا : عدنان بن صفوان

(1) في الأصل : وسنان .

(2) واضح أن هذا بقية كلام محمد بن تومرت المهدي ، ولم نستطع توجيه هذه العبارات على نحو مقبول .

(3) عن نسب محمد بن تومرت واختلاف الآراء فيه انظر : ابن خلدون : العبر 225/6 - 226 ؛ ابن

خلكان : وفيات الاعيان 45/5 - 46 ؛ ابن أبي زرع : روض القرطاس ص 172 ؛ الزركشي : تاريخ الدولتين ص 1 ؛ الحلل الموشية 103 ؛ كتاب الأنساب ص 21 ؛ وانظر كذلك مناقشة أويشي لمختلف آراء المؤرخين القدامى في كتابه « تاريخ الدولة الموحدية » 27/1 وما بعدها .

ابن جابر بن يحيى بن عطاء بن رباح بن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن بن علي أبي طالب رضي الله تعالى عنهم (1).

وقيل إنه رضي الله عنه : محمد بن عبد الله بن وجليد بن يامصل (2) بن حمزة بن عيسى بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم (3).

وكان والده - رضي الله تعالى عنه - قد لقبته أخته بتومرت ، (4) ويقال له أيضا الشيخ ، ويقال له أيضا أمغار (5). فهو عبد الله ، وتومرت ، والشيخ ، وأمغار .

وعاش والده إلى أن لحقه ببجاية قافلا ، فأكد عليه في القبول (6) شوقا إليه ، فلزمه بره ، فقفل رضي الله تعالى عنه .

ولقبه - رضي الله تعالى عنه :

المهدي ؛ لقبه بذلك العشرة من أصحابه ساعة مبايعتهم * له أولى بيعة انعقدت له ، كما سيأتي بعد تمام هذه المقدمة إن شاء الله تعالى .

(1) ورد هذا النسب في كتاب « الأنساب في معرفة الأصحاب » ص 21 ، على أن مؤلف هذا الكتاب أتبع ذلك بقوله إن قرابة ابن تومرت وأهل العناية بشأنه لا يعرفونه .

(2) في الأصل : مصل ، والتصويب عن كتاب « الأنساب » ؛ وفي العبر لابن خلدون : يا مصل ، وهو ينص في هذا الموضع على أنه إنما نقل هذه النسبة عن نفس ما كتبه ابن القطان (العبر 225/6) .

(3) يتفق هذا النسب مع ما جاء في كتاب « الأنساب » ، وهو ما أكد مؤلف هذا الكتاب على أنه الصحيح .

(4) في الأصل : يتومرت ، وهو يقصد أن اسم تومرت هذا إنما أطلق عليه من أجل ذلك ، أما هذه الكلمة فهي تعني على الأرجح ضرباً من الأكسية الجلدية ، ومن الطريف بمناسبة هذه الكلمة البربرية ما ذكره ليفي بروفنسال عند نشره لقطعة من « نظم الجمان » تتضمن هذا النص (Mélanges René Basset) (p. 369) أن الأستاذ رينيه باسيه قد أفاده بأن هناك كلمة قزبية من هذه ما زالت شائعة لدى أهل جزر كنارياس ، وهي Tamarco ومعناها « كساء من الجلد أيضا » - وأنه ربما كانت هذه الكلمة ولفظ تومرت من أصل واحد .

(5) هذه الكلمة هي الترجمة البربرية للفظ « الشيخ » .

(6) في الأصل : القبول .

وقد وقفت على نسخة صك (1) كتبه - رضي الله تعالى عنه - للفقهاء القاضي علي بن أبي الحسن الجذامي (2) أوله بعد البسملة والصلاة « أقول وأنا محمد بن عبد الله تومرت وأنا مهدي آخر الزمان » ؛ وتاريخه آخر شهر رمضان المبارك عام أحد عشر (3) وخمسمائة ؛ فجاء من هذا أنه كان يلقب بذلك من قبل .

وكان رضي الله تعالى عنه يلقب في صغره وهو يقرأ في المكتب « أسفو » ، (4)

(1) في الأصل : مك ، ولعل الصواب ما أثبتنا ؛ ونحتمل أن تكون أيضا : ما أو مما .

(2) لم نهند لشخصية القاضي علي بن أبي الحسن الجذامي هذا ، وقد أشار ليفي بروفنسال في تعليقه على هذا النص إلى شخص كان يسمى علي بن أحمد بن محمد الجذامي ، عاش في سبتة ، وتوفي سنة 532 هـ . (ترجم له ابن الأبار في المعجم ، رقم 260 ؛ وابن الزبير في صلة الصلة ، ترجمة ، رقم 175) . (انظر Mélanges p. 370)

1. ونضيف إلى ذلك أن هذا القاضي ينبغي أن يكون من أسرة بني الحسن المشهورة التي تولى كثير من أفرادها القضاء في رية (مألقة) بالأندلس والتي ينتسب إليها القاضي ابن الحسن النباهي الجذامي صاحب كتاب « المرقبة العليا ، فمن يستحق القضاء والفتيا » ، ونحن نعرف من هذه الأسرة ممن يحتمل أن تكون الإشارة إليه في هذا النص - لولا اختلاف الاسم - القاضي أبا عبد الله محمد بن الحسن الجذامي المالقي الذي ولي قضاء غرناطة سنة 515 ، وتوفي سنة 519 (كتاب المرقبة العليا المذكور - ط. ليفي بروفنسال ص 106-106) . وربما كان أيضا أبا علي الحسن بن إبراهيم بن محمد الجذامي المالقي الذي ترجم له ابن الأبار وقال إنه رحل حاجا ، فأخذ عنه بالإسكندرية سنة 515 ، ولم يحدد ابن الأبار تاريخ وفاته (انظر معجم أصحاب أبي علي الصديقي رقم 63) . وربما يكون أبو علي الحسن هذا قد التقى بابن تومرت في أثناء رحلته إلى المشرق .

وربما كان المقصود هو أبا الحسن علي بن محمد الجذامي البرجي نسبة إلى برجة (من عمل المرية) ، وكان مشاوراً في الأحكام ، سمع من أبي علي الصديقي ، وتوفي سنة 509 ؛ وقد ذكر له ابن الأبار موقفا صلبا ضد إحراق كتب الغزالي إذ أفتى بتأديب محرقها وتضمينه قيمتها مما أغضب عليه قاضي قرطبة ابن حمدين ، وربما رجح هذا كون أبي علي المذكور هو الذي كتب إليه ابن تومرت الصك المشار إليه هنا ، إذ أن موقفه هذا ضد السلطات المرابطية قد يكون مما قرب بينه وبين ابن تومرت المهدي (انظر ترجمته في معجم أصحاب أبي علي الصديقي ، رقم 253 ؛ وابن الزبير : صلة الصلة ، رقم 153) . على أنه يعترض هذا الفرض أن الصك الذي كتب به ابن تومرت كان مؤرخا في سنة 511 ، بينما توفي علي بن محمد الجذامي المذكور في سنة 509 على ما يقول ابن الأبار أو في حدود سنة 510 على ما ذكر ابن الزبير .

(3) في الأصل : إحدى .

(4) أشار إلى ذلك أيضا ابن خلدون (العبر 226/6) ، ولو أن هذا اللفظ ورد لديه « أسافو » ، وانظر مادة « محمد بن تومرت » التي كتبها رينيه باسيه في دائرة المعارف الإسلامية 451/2 - 453) .

ومعنى «أسفو» بالبرية «الضياء» ملازمته إيقاد القنديل في المسجد للقراءة والصلاة.

وأمه - رضي الله تعالى عنه :

من بني يوسف من مسكالة من أهل السوس ، من موضع أصروان يسمح ؛ وبنو يوسف هم أحوال الإمام المهدي - رضي الله تعالى عنه - ، وكانت أمه - رضي الله تعالى عنه - قد أعنست . فلما خطبها أبوه وكان فقيراً * رغبوا في مصاهرته ، فلما ولد الإمام المهدي - رضي الله تعالى عنه - اجتمع عنه أبيه وأمه هدايا كثيرة ، فكان ذلك سببا لغنى ⁽¹⁾ والد الإمام المهدي - رضي الله تعالى عنه .

ومولده رضي الله تعالى عنه :

بموضع يسمى نومكران ، وهو موضع لا ماء فيه ، وإنما يشرب أهله ماء المطر ، وهنالك داره .

وصفته ⁽²⁾ - رضي الله تعالى عنه [عنه] :

ربعة ، مفلج الثنايا ، قليل اللحية ، في خنصر إحدى يديه شبه الخاتم من اللحم ، حصور لا يأتي النساء .

وأخلاقه - رضي الله تعالى عنه :

كان شجاعاً ، ⁽³⁾ كريماً ، مصمماً على الحق ، لا يأخذه في الله لومة لائم ، عالماً متملياً من علوم الحديث والأصولين : أصول الفقه وأصول الدين ؛ وكان في صغره ملازماً للمسجد ودرس لوحه ؛ ليست له صبوة ولا شهوة ؛ وكان - رضي الله تعالى عنه - ينهي عن التقليد وقراءة ⁽⁴⁾ كتب الرأي * مجتهداً متبحراً مصيباً في كل الأمور . رضي الله تعالى عنه .

(1) في الأصل : الغناء .

(2) في صفة المهدي انظر كذلك ما جاء في روض القرطاس لابن أبي زرع ص 181 .

(3) في الأصل : سجاعاً .

(4) في الأصل : وقرات .

عصمته - رضي الله تعالى عنه :

وهذه الصفة كرامة من كراماته - رضي الله تعالى عنه - خصه الله تعالى بها ، وينقل آحاد أشخاصها تتحقق جملتها .

فمن عصمته - رضي الله تعالى عنه : عصمته من أهل الإسكندرية ، فإنه رأى بها منكر فغيرها ، وأغلظ في أمرها ، فقامت عليه العامة والغوغاء ، فصاروا يقطعون به في طريقه إلى مجلس الطرطوشي ⁽¹⁾ - رحمه الله تعالى - ولم ينله من بأسهم - على غربته وشحط داره - أكثر من هذا ؛ فلما فقد الطرطوشي بحث عنه حتى أعلم بمكانه ، فقصده إليه وهو في مسجد الأخضر ⁽²⁾ على ساحل البحر ، فترامى عليه ، وصافحه ، وسأله عن سبب غيبته عن مجلسه ، فعرفه بشأن أولئك الغوغاء ، ⁽³⁾ وأنه يريد الإياب إلى المغرب ، فودعه - رضي الله تعالى عنه - وانصرف .

(1) هو أبو بكر محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي المعروف بابن أبي رندة ، ولد في طرطوشة Tortosa سنة 451 ، ودرس في بلده وفي سرقسطة ، إذ كان تلميذاً للفقيه المعروف أبي الوليد الباجي ، وكانت له رحلة إلى المشرق في سنة 476 حج فيها ودرس في بغداد والبصرة ودمشق وبيت المقدس والقاهرة ، واستقر أخيراً في الإسكندرية ، وهو صاحب كتاب «سراج الملوك» الذي انتهى منه في سنة 516 وأهداه إلى الوزير المصري المأمون البطائحي ، وكانت وفاته في سنة 520 (انظر في ترجمته المادة التي كتبها عنه الأستاذ محمد بن أبي شنب في دائرة المعارف الإسلامية 378/2) والمراجع المذكورة ، والمقدمة التي صدر بها الأركون Maximiliano Alarcon الترجمة الإسبانية التي اضطلع بها لكتاب «سراج الملوك» تحت عنوان Lámpara de los Principes ، وقد نشرت هذه الترجمة في مدريد سنة 1930 .

(2) كذا في الأصل ، وقد أشار ليفي برونفسال عند تعليقه على هذا النص (Mélanges, p. 372, n.) إلى أنها قد تكون تحريفاً للفظ «الخضر» إذ أن من مساجد الإسكندرية المعروفة مسجداً ينسب للخضر عليه السلام (انظر مادة الإسكندرية التي كتبها روفن جيست Rhuvon Guest في دائرة المعارف الإسلامية 571/2) ، وهناك باب من أبواب الأسوار القديمة في مدينة الإسكندرية مازال معروفاً باسم «الباب الأخضر» ، وربما كان المسجد الذي يشير إليه ابن القطان في هذا النص موجوداً على مقربة من ذلك الباب .

(3) في الأصل : الغرقاء ، وقد قرأها ليفي برونفسال : العرقاء ؛ ونظن أن الصواب ما أثبتنا .

[10 ب] ومن عصمه - رضي الله تعالى عنه - منع أهل * المركب من تغريقه ، وقد هموا بذلك ، وما أظهره الله تعالى في ذلك من العبر ، وذلك أنه - رضي الله تعالى عنه - ركب البحر في سفينة من الإسكندرية يريد بلاد المغرب ، فرأى في المركب خمرا ، فأراقه ، فصاح عليه صاحب الخمر وسبه ووضع يده فيه ، فاجتمع أهل المركب إليه ورغبوه حتى سكت ؛ ثم حضر وقت الصلاة ، فأمرهم بالصلاة ، فلم يلتفتوه ، فشدد عليهم ، فغضبوا وهموا بإلقائه من المركب ، فهال عليهم البحر ، وكادوا يغرقون ، فقام إليهم رجل حاج فقال لهم : تداركوا أنفسكم بإرضاء هذا الرجل لعل الله تعالى يفرج عنكم ! فأقبلوا نحوه متضرعين راغبين ، فقال لهم - رضي الله تعالى عنه - صلوا ، فتوضأوا وصلوا ، فكشف الله تعالى ما بهم ، وجرت السفينة بريح طيبة ؛ فصاروا يطلبون منه الدعاء كل يوم (1) .

[16 أ] ومن عصمه - رضي الله تعالى عنه - منع علي بن يحيى بن تميم (2) منه ، وهو صاحب * المهديّة ، ونجّاته - رضي الله تعالى عنه - من شره ، وذلك أنه لما احتل بالمهديّة - رضي الله تعالى عنه - رأى بها سوقا تباع فيه الخمر ، فكسر دنائها وأراقها ، وغير المنكر . فغيظ بذلك واليها على المذكور . وهم به ، ثم رأى

(1) وردت هذه القصة مع بعض الاختلاف في تفاصيلها لدى ابن خلكان : الوفيات 46/5 ، وابن الأثير : الكامل 294/8 ، وعبد الواحد المراكشي : المعجب ص 246 .

(2) ذكر ابن خلكان أن محمد بن تومرت انتهى إلى المهديّة بعد سفره من مصر في عهد يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي (الوفيات 47/5) ، وقد جعل ذلك في سنة 505 ، وكان قد ذكر في ترجمة تميم بن المعز أن يحيى هذا أن ابن تومرت قد اجتاز بالمهديّة في عهده بعد عودته من المشرق (الوفيات 305/1) ، وذلك نقلا عن كتاب « أخبار القيروان » لعبد العزيز بن شداد بن تميم بن المعز ، وقد نبه ابن خلكان على ما في ذلك من تناقض واضطراب ، أما ابن الأثير فإنه يتفق مع ابن خلكان في الرأي الأول ، وهو أن ابن تومرت دخل المهديّة في سنة 505 في أيام يحيى بن تميم (الكامل 294/8) وذلك خطأ ، إذ أن دخول ابن تومرت المهديّة لم يحدث إلا في سنة 511 في عهد علي بن يحيى بن تميم الذي حكم إفريقية ما بين سنتي 509 و 515 .

أن يوجه إليه المازري (1) الفقيه : فتوجه إليه وعاتبه ، (2) ورفق به وقال له : أخاف عليك عاديتك وعادية جنده ! فخرج إلى المنستير .

ومن عصمه - رضي الله تعالى عنه - منع العزيز بن منصور بن الناصر بن علاء الناس بن حماد (3) منه . وقد غاظه (4) وأغضبه ، وسلامته - رضي الله تعالى عنه - من عذوه ، وهو ملك بجاية ، وذلك أنه - رضي الله عنه - لما دخل بجاية لقي به الصبيان في زي النساء بالصفائر والأحراس (5) والزينة وشواشي (6) الخز ، وألقى (7) الأزدال قد فتنوا بذلك وانهمكوا . فغير المنكر جدّه ، وأزال ذلك الزي مستطاعه .

ثم حضر عيداً ، فرأى فيه من اختلاط الرجال بالنساء والصبيان المتزينين المتكحلين ما لا يحل ، فزجرهم وغير ذلك عليهم فوقعت لأجل ذلك نفرة * استطال فيها الشر ، وسلب النساء حليها ، وقام المهرج ، فسأل العزيز عن سبب ذلك ، فعرف بأنه لا سبب له إلا الفقيه السوسي ، وكذلك كان - رضي الله تعالى عنه - يعرف بالمشرق ، ووجد المشنعون سبيلا إلى القول فيه ، فقالوا وأوغروا (8) عليه قلب العزيز ، فأمر بجمع الطلبة لمناظرته في جرائته على الملوك .

(1) هو الفقيه المالكي أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر التميمي المازري الصقلي المتوفى سنة 536 (انظر في ترجمته كتاب الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب باشا : الإمام المازري - من منشورات لجنة البعث الثقافي - ط . تونس 1955) . هذا وقد ذكر الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب في كتابه (ص 52) أن محمد بن تومرت المهدي تلمذ على الإمام المازري .

(2) في الأصل : وعاديت ، ونظنها تحريفاً لما أثبتنا .

(3) العزيز بن منصور بن الناصر بن علاء الناس (علناس) الحمادي أمير المغرب الأوسط (بجاية وبونة والجزائر وقسنطينة) ، ولي الحكم سنة 498 هـ . (1105 م .) حتى وفاته في سنة 515 (1121 م .) . انظر مادة « بني حماد » في دائرة المعارف الإسلامية بقلم الأستاذ ج . إيفير (268/2) .

(4) في الأصل : غاضه .

(5) أي الاسورة .

(6) جمع شاشية ، وهي غطاء للرأس (انظر دوزي : ملحق القواميس العربية 802/1) .

(7) في الأصل : وألقى .

(8) في الأصل : وغروا .

فاجتمعوا في دار أحدهم ، واحتفلوا ⁽¹⁾ في إعداد المطاعم والمشارب ، ووجهوا عن الإمام - رضى الله تعالى عنه - إلى المسجد الذي كان يحل فيه ، فامتنع من الوصول إليهم . فوجهوا إليه الكاتب عمر بن فلفول ، ⁽²⁾ فلاحظه وأقسم عليه ورغبه وتضرع إليه حتى أسعفه ، فوصل إليهم ، فناظره وساءلوه ، فأجابهم ما أسكتهم ، ثم سألهم فما أعاروا جوابا . ولأطفه ابن فلفول عند ذلك يراوده على ترك ما هو بسبيله من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

..... * بها إلى الباطل ، وطاعة أهل التجسيم بالفساد ، والانحياز إلى جنبهم ، لينالوا بذلك غرضهم . ويصلوا إلى بغيتهم ، وقالوا لهم : طاعتهم والانقياد لهم واجب عليكم مع علمهم بعتاة الظلمة وخروجهم عن السبيل ، وقالوا لهم : يجب عليكم - مع علمهم - السمع والطاعة في كل ما أمروكم به ، مع علمهم أنهم لا يأمرن إلا بالباطل والفساد والضلال وهلاك الحرث والنسل ، وقالوا لهم : نلزمكم طاعتهم في ذلك كله اتباعاً لأهواء الكفرة وافتراء على الله ، وبغضوا إليهم أهل التوحيد ، وحذروهم من الرجوع وسلوك سبيلهم ، وحاولوا تبديل الكلام وتعريف القول بالزور والبهتان ، وتقولوا علينا بما لم نقل تهجيناً وتبغيضاً للحق عند العوام حتى لا يصغوا إليه ولا يقبلوه ، وعدوا لهم جملاً من الأبواب ، ونسبوا ذلك كله إليه ؛ وأنهم أحدثوا من المناكر والمغامر ، وتقلبهم في السحت والحرام ، يأكلون منه ويشربون ، ويغدون ويروحون .

وقال كعب بن عجرة ⁽³⁾ : ما من لحم نبت من سحت إلا كانت النار

[17]

أولى به ، وقال : قال رسول الله ﷺ : أعيدك يا كعب بن عجرة من أمراء يكولون * بعدي ، فمن غشي ⁽¹⁾ أبوابهم وصدقهم على كذبهم وأعانهم على [17] ظلمهم فليس مني ولست منه ولا يرد الحوض عليّ ⁽²⁾ .

وذكر قول رسول الله ﷺ وملائكته الكرام عليه وسلم ⁽³⁾ : وددت أني قد رأيت إخواننا ! قالوا : يا رسول الله ، ألسنا بإخوانك ؟ قال : بل أنتم أصحابي ، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد ، وأنا فرطهم على الحوض .

قال :

ففيه تنبيه على طائفة الحق الذين صبروا على دينهم بعده ، وتمسكوا بسنة النبي عليه الصلاة والسلام ؛ وفيه تنبيه على طوائف أهل الباطل الذين تركوا دينهم بعده وارتدوا وبدلوا وغيروا وجسموا وعاندوا الحق .

قال عليه الصلاة والسلام : فليزداد رجال عن حوضي كما يزداد البعير الضال ، أناديهم : ألا هلم ! ألا هلم ! فيقال : إنهم قد بدلوا وغيروا بعدك ، فأقول : فسحقاً ! فسحقاً ! فسحقاً !

وحذر - رضى الله عنه - من الملبسين الذين يتوسلون بفتياهم إلى باطلهم وأهوائهم ، ونص قول رسول الله ﷺ وملائكته الكرام عليه وسلم أن : لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ، ولكن يقبض العلم لقبض العلماء . حتى إذا لم

(1) في الأصل : وغشا .

(2) جاء هذا الحديث مع خلاف يسير في بعض ألفاظه في صحيح البخاري (ط . القاهرة سنة 1312 هـ .) 46/9 ؛ كما أثبتته أيضاً السيوطي في كتاب الجامع الصغير (انظر فيض القدير للمناوي 361/6) ؛ وراجع « أعز ما يطلب » لابن تومرت ص 261 - 262 ، وقوله (ص) « وأنا فرطهم على الحوض » أى سابقهم إليه .

(3) جاء هذا الحديث وبقيته الواردة بعد في سنن النسائي (بشرح السيوطي وحاشية الإمام السندي - ط . القاهرة سنة 1930) 160/7 - 161 ؛ وانظر « أعز ما يطلب » ص 261 .

(1) في الأصل : واختفلوا .

(2) في الأصل : فلبول ، ولعل الصواب ما أثبتنا ، وسترد بعد ذلك بقليل كما ذكرنا .

(3) كعب بن عجرة صحابي روى له عن رسول الله (صلعم) سبعة وأربعون حديثاً ، وروى عنه عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وجابر بن عبد الله وعبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهم وآخرون ، سكن الكوفة وتوفي بالمدينة سنة 51 أو 52 أو 53 هـ . (انظر ترجمته لدي النوي : تهذيب الأسماء واللغات - ط . القاهرة - ق 1 - 68/2) . هذا وقد ورد هذا النص وما يليه في كتاب « أعز ما يطلب » ل محمد بن تومرت المهدي باختلاف قليل (انظر ص 261 وما يليها) .

[18 أ] يترك عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً ، فسئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا .⁽¹⁾
وهو في الصحيحين ، وهو مشاهد في الوجود محسوس .

وحذر من أعوانهم الذين رجعوا إليهم وباعوا دينهم بعرض من الدنيا ،
يصبح أحدهم مؤمناً ويمسي كافراً ، يبيع أحدهم دينه بدنيا غيره ، ونص قول
رسول الله صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم : بادروا بالأعمال فتنا
كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح
كافراً ، يبيع دينه بعرض⁽²⁾ من الدنيا⁽³⁾ .

قال :

وفتنة الدين أكبر ، إذ لا فتنة أعظم من الارتداد والتبديل والتغيير .

وحذر من أعوانهم عبيد الدينار والدرهم والخميسة⁽⁴⁾ الذين كانوا تحتهم في
الذل والهوان ، تركوا دينهم وخسروا آخرتهم ، ابتغاء مرضاتهم خوفاً على دنياهم ،
ورضاهم ممتنع لا يدرك ، ودنياهم فانية لا تبقى ، فخسروا الدنيا والآخرة ،
ملعونين على لسان رسول الله صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم :

(1) ورد هذا الحديث في صحيح مسلم (ط . القاهرة سنة 1333 هـ .) 60/8 ؛ وراجع « أعز ما
يطلب » ص 261 .

(2) في الأصل : بغرض .

(3) ورد هذا الحديث في مسند أحمد بن حنبل ، ومسند الترمذي وصحيح مسلم (انظر عبد
الرؤوف المناوي : فيض القدير شرح الجامع الصغير 193/3) .

(4) الخميسة الكساء الأسود المعلم ، وهو يشير هنا إلى الحديث النبوي الشريف « تعس عبد
الدينار والدرهم والقطيفة والخميسة : إن أعطى رضى وإن لم يعط لم يرض » ، إشارة إلى فتنة المال .
« انظر صحيح البخاري 92/9 وسنن المصطفى لابن ماجة القزويني 534/2 ؛ وقد ورد هذا الحديث أيضاً
في باب « بيان طوائف المبطلين من المثلثين والمجسمين وعلاماتهم » من كتاب « أعز ما يطلب » لابن
تومرت ص 263) .

لثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكهم ولهم عذاب أليم ... الحديث ، وفيه : ...
رجل بايع إماماً لا يبايعه إلا لدنيا ، فإن أعطاه منها وفى ، وإن لم يعطه منها لم يف⁽¹⁾ .
قال :

فإذا بهم يميلون مع الدنيا حيث مالت ، لا عهد لهم ولا ميثاق ، ولا لمن « [18 ب]
وافق مرادهم ، هذه حالهم المشاهدة منهم .

قال :

وقد أمر رسول الله صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم بمخالفة
أهل الباطل في رأيهم وأفعالهم . وقال : خالفوا اليهود وخالفوا المشركين⁽²⁾ .

قال :

وكذلك المجسمين ، هم يشبهون النساء في تغطية الوجوه والتلثم⁽³⁾ والتنقب⁽⁴⁾ ،
ويتشبه نساؤهم بالرجال في الكشف عن الوجوه بلا تلثم ولا تنقب⁽⁵⁾ ، وقد لعن رسول
الله ﷺ⁽⁶⁾ المتشبهات من النساء بالرجال والمتشبهين من الرجال بالنساء ، فقد شملتهم
اللعنة جميعاً ، ومن كثر سواد قوم فهو منهم .

(1) جاء هذا الحديث في مسند أحمد بن حنبل ، وتماه : « ... رجل على فضل ماء بالقلاة يمنع من
ابن السبيل ، ورجل بايع رجلاً بسلعة بعد العصر ، فحلف له بالله لأخذها بكذا وكذا ، فصدقه ، وهو
على غير ذلك ، ورجل بايع إماماً ... الخ (انظر فيض القدير للمناوي 330/3 - 331) .

(2) الحديث : « خالفوا اليهود فإنهم لا يصلون في نعالهم ولا خفافهم » وقد أورده أبو داود والحاكم
والبيهقي ، وزاد ابن حبان في روايته « ... والنصارى » (انظر فيض القدير 431/3) .

(3) في الأصل : والتلثم .

(4) في الأصل : والسقب .

(5) في الأصل : تنف .

(6) يشير إلى الحديث النبوي الشريف « لعن الله المتشبهات من النساء بالرجال ، والمتشبهين من
الرجال بالنساء » وقد أورد هذا الحديث أبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد بن حنبل في مسنده (انظر
فيض القدير 271/5) ؛ وهناك أحاديث أخرى في نفس المعنى منها حديث « لعن الله المختلعة من الرجال ،
والمترجلات من النساء » أورده البخاري في كتاب « الأدب المفرد » والترمذي (انظر فيض القدير 271/5) ؛ =

وقال الله تعالى : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ﴾ (1) ... الآية ، وقال تعالى : ﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ﴾ (2) .. الآية ، وقال تبارك وتعالى : ﴿ يأبى الذين آمنوا لا يتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ﴾ (3) .. الآية ، وقال سبحانه : ﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾ ، (4) وقال سبحانه : ﴿ ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾ . (5) وقال رسول الله صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم : « الحب والبغض في الله من علامات اليقين » (6) .

[19 أ] « وطاعتهم حرام لأنهم كفار ومنافقون ومتبعو الهوى ومعتدون ومفسدون وجاهلون . قال الله تعالى في تحريم طاعة الكافرين : ﴿ يأبى الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين ﴾ . (7) وقال سبحانه في تحريم طاعة المنافقين : ﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين ﴾ . (8) وقال في تحريم طاعة من اتبع الهوى : ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه ﴾ (9) وكان أمره فرطاً . (10) وقال سبحانه في تحريم طاعة المعتدين : ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين ، همار مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم ﴾ (11) ... الآية . وقال سبحانه

= وكذلك حديث « لعن الله الرجل يلبس لبسة المرأة ، والمرأة تلبس لبسة الرجل » ، أورده الحاكم النيسابوري في « المستدرک » (فيض القدير 269/5) .

(1) سورة هود ، آية رقم 113 .

(2) سورة المجادلة : آية رقم 22 .

(3) سورة الممتحنة ، آية رقم 1 .

(4) سورة المائدة : آية رقم 51 .

(5) سورة الممتحنة ، آية رقم 9 .

(6) جاء في صحيح البخاري (11/1) : والحب في الله والبغض في الله من الإيمان .

(7) سورة آل عمران ، آية رقم 149 .

(8) سورة الأحزاب ، آية رقم 1 ، وآية رقم 48 .

(9) في الأصل : هوبه .

(10) سورة الكهف ، آية رقم 28 .

(11) سورة القلم ، آيات 10 - 13 .

في تحريم طاعة المفسدين : ﴿ ولا تطيعوا أمر المسرفين ، الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴾ . (1) وقال عز وجل في تحريم طاعة الجاهلين : ﴿ ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ، إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا ﴾ . (2) وقال رسول الله صلى الله تعالى وملائكته المقربون الكرام عليه وسلم : « على المرء السمع والطاعة ما لم يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » . (3)

واستدل على وجوب قتالهم بقول الله عز وجل : ﴿ يأبى الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدا فيكم غلظة ﴾ (4) ... الآية ، ويقول رسول الله صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم : على المرء السمع والطاعة ، أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا « لا إله إلا الله » فمن قالها فقد عصم مني ماله [19] ونفسه إلا بحقه . وحسابه على الله » ؛ فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه : والله لأقتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم لقاتلتهم على منعه ؛ فقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : فو الله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال ، فعلمت أنه الحق . (5)

(1) سورة الشعراء ، آية رقم 151 - 152 .

(2) سورة الجاثية ، آية 18 - 19 .

(3) ورد هذا الحديث مع بعض الاختلاف في ألفاظه في سنن المصطفى لابن ماجة القزويني (ط .

القاهرة سنة 1349 هـ .) 202/2 ؛ وفي صحيح البخاري 49/4 - 50 ؛ وفي سنن النسائي 160/7 ؛ وفي سنن

أبي داود (ط . القاهرة سنة 1348 هـ .) 409/1 .

(4) سورة التوبة ، آية رقم 123 .

(5) ورد هذا الحديث وما تلاه من كلام أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما في صحيح البخاري

14/1 ، وكذلك في 105/2 ؛ وفي سنن النسائي 14/5 - 15 ؛ وفي سنن ابن ماجة 457/2 ؛ وفي سنن أبي

داود 411/1 .

قال الإمام رضي الله تعالى عنه :

فكل من منع فريضة من فرائض الله عز وجل فحق على المسلمين جهاده (1)
حتى يأخذوها منه ، فكيف من منع الإيمان والدين والسنة ؟ !

وقال رسول الله صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم : « ما من نبي بعثه الله في أمته قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدكم بيده فهو مؤمن ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » .

وتلا قول الله عز وجل : ﴿ ولولا دفع (2) الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد ﴾ (3) ... الآية .

فكل هذه مما جاء به الإمام المهدي رضي الله تعالى عنه مما يشهد بصدق ما أتى به وسعة علمه وعصمته ، * فكل هذه العلامات التي ناطها بالقوم الذين تول تغيير ما أتوا به دالة على أشراط الساعة وأنه - رضي الله تعالى عنه - هو الإمام المهدي المنتظر الموعود - رضي الله عنه - ، وهذا أمر قد وضع بيانه ، وصح برهانه ، وسطع ضياؤه ، وارتفع سناؤه ، فسيان الإسهاب (4) في ذلك والاختصار ، والإطناب والالاقتصار .

ومما رأينا كتبه في هذا المعنى لحسن مساقه ، وعجيب اتساقه :

(1) في الأصل : جهادهم .

(2) في الأصل : دفاع .

(3) سورة الحج ، آية رقم 40 .

(4) في الأصل : الانتهاب .

رسالة مخاطب بها أبو عبد الرحمن بن طاهر (1)
حضرة سيدنا ومولانا الخليفة الأول الإمام
أمير المؤمنين أبا محمد عبد المؤمن بن علي
رضي الله تعالى عنه

يثبت فيها أمر الإمام المهدي رضي الله تعالى عنه بالدليل والبرهان على طريق المنازعة بين النفس المطمئنة والنفس الأمارة بالسوء عقلا ونقلا

وهي هذه بنصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وآله .

(1) نظن أن المعنى هنا هو أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن طاهر المرسى ، وهو من أسرة بني طاهر المشهورة التي تداولت رئاسة مدينة مرسية Murcia وكورتها فترة طويلة ، وجده وسميه أبو عبد الرحمن بن طاهر هو الذي تغلب على مرسية أيام ملوك الطوائف حتى أخرجه منها واعتقله أبو بكر بن عمار وزير المعتمد بن عباد ، وتوفي أخيراً في بلنسية سنة 507 (راجع عن ابن طاهر هذا ابن بسام : الذخيرة - القسم الثالث ص 24-40 ؛ ابن عبد الملك : الذيل والتكملة 5/590 ، ترجمته 1165 ب ؛ ابن خاقان : قلائد العقيان ص 56-70 ؛ ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص 160 ، 201-203 ؛ ابن سعيد : المغرب 2/247 ؛ وانظر الفصل الذي اختصه به وبينه المستشرق الأستاذ جاسبار ريمرو في كتابه « مرسية الإسلامية » ص 105 - 106 ، Gaspar Remiro : Historia de Murcia Musulmana, Zaragoza, 1905, 116 - 105 . أما المقصود في هذا النص فقد ترجم له ابن الأبار (التكملة رقم 774 ص 238) وقال إنه تفقه ورحل إلى قرطبة وسمع من شيوخها وأجاز له ابن العربي وغيره ، وكان يذهب في جميع ما يحمله إلى الدراية ، ثم طالع العلوم القديمة فبرز فيها وصار من أئمتها ، وتولى رئاسة بلدة مرسية بعد انقراض دولة المرابطين ، وكانت وفاته بمراكش سنة 574 . ولعل ابن الأبار يشير إلى كتابته الرسالة الواردة هنا إذ يقول في ترجمته المشار إليها « وتلون للناس رغبة في السلامة » ، فهو يعني - على ما نرجح - ترفله إلى الموحدين بكتابة مثل ذلك ، ولعله من أجل هذه الرسالة كافأه عبد المؤمن بن علي بتوليته على بلدة مرسية كما ذكر ابن الأبار . وهناك ترجمة أخرى لابن طاهر في « الحلة السرياء » لابن الأبار أيضا (227/2 - 235) ، كما ترجم له أيضا ابن عبد الملك المراكشي في « الذيل والتكملة » ، المجلد السادس رقم 896 ص 338-339 ، فقال إنه طالع العلوم القديمة فبرز فيها وإنه « خاطب عبد المؤمن بمقالة علمية يقرر فيها صحة أمر المهدي القائم بأمر الله وبعث بها إليه ، ثم وفد بها عليه » ، وليس هناك شك في أن ابن عبد الملك إنما يعني « بالمقالة العلمية » المذكورة هذه الرسالة .

أقول - بعد حمد الله تعالى والصلاة على محمد المجتبي وعلى عترته (1) أهل الفضل والنهي - .

[20 ب] بينما كنت متحير * النفس ، نازع الأنس ، لكوني مقيماً في مدن جاهلية ، وسير فاسدة خسية ، وفتن مدهمة ، وأمور على الجملة مخيفة مهمة ، إذ كان كل ذى فتنة منهم يدعو إلى الشرور المحظورة ، ويضطرنا إلى أن ندخل معه في الأمور المحذورة ، متشوقاً إلى مدينة فاضلة ، وإمرة عادلة ، وسيرة شرعية كاملة ، نجب الهجرة إليها عقلاً وشرعاً ، من جهة أنها حق طبعاً ، غريباً في هذه الدنيا ، ردى العيش خير لي أن أموت من أن نحيا - إذ وافاني بعض الإخوان معلماً أنه من المهاجرين إلى حضرة إمام الموحدين المسمى حقيقة بأمر المؤمنين عبد المؤمن ابن علي رضي الله تعالى عنه ، فتسمت ربح الحياة اللذيذة الشرعية ، واستشعرت الإزاحة عن هذه المدن الضالة الجاهلية ، وقلت : عسى أن الحياة الآن هي الخير ، لزداد من فعل ما نسعد به ، إذ قد ارتفع العائق والضير !

ثم إنه نازعتني نفسي النزوعية ، وقالت لي :
- أنى لك بحقيقة هذه الأرجية ؟!
وردت عليها النفس المطمئنة الفكرية :

[21 أ] وهذه النفس النزوعية هي التي عناها القائل * بقوله :

أقول لنفسي حين فاجأها الردي ولاذت (2) فراراً من يسار إلى يميني
قرى تحملي بعض الذي تكرهينه فقد طالما اعتدت الفرار إلى الأهني

والنفس اللائذة هي النزوعية ، والقائلة للنزوعية : « قرى تحملي ... » هي المسماة عند نحوي العرب ضمير المتكلم ، وهي النفس النطقية الفكرية ، وهذا بعينه عنى القائل بقوله :

قالت لى النفس إني في أذى وقذى فقلت : صبراً وإجمالاً كذا يجب

(1) في الأصل : عترته .

(2) في الأصل : ولات .

وهذه النفس النطقية هي النفس المطمئنة التي قال الله تعالى فيها : ﴿ يأتيا النفس المطمئنة . ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي ﴾ (1)

والنفس النزوعية هي التي قال الله تعالى فيها : ﴿ إن النفس لأماراة بالسوء ﴾ (2) وهي التي تضاد كثيراً النفس المطمئنة ، وذلك أنه إذا حكمت النفس المطمئنة أن الإمام المهدي أبا عبد الله محمد بن عبد الله الفاطمي - رضي الله تعالى عنه - مهدي على الحقيقة ، وملك على الإطلاق ، وإمام أول ، وأنه الذي بشر به جده محمد صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم ، فكان ينتظر ويؤمل - قالت الأماراة بالسوء : - وكيف ذلك ؟

قالت المطمئنة :

[21 ب] - ألم تكن مدن المثلثين مدناً ضالة فاسقة خبيثة ، * نذلة في الغاية ، تغلبيّة حسباً تقدم وبين في « رسالة الإمامة » ؟ وكان كل إنسان يظن لضعف يقينه أن خلعه من الخيال ، وأنه لا يستطيع عليه على حال ؟ وإنهم سرحوا الناس وأنفسهم إلى الأفعال البهيمية ، وأزاحوهم وأزاحوا أنفسهم عن الأفعال الجميلة الشرعية ، وجعلوا الناس شبه الآلات ليستبدوهم (3) بالأموال والكرامات ، وبالجملة بجميع اللذات ؟ نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، « ومن يضل الله فلن تجد له ولها مرشداً » ؛ (4) وإن المهدي أبا عبد الله محمد بن عبد الله - رضي الله تعالى عنه - قام لإطفاء هذه النار مستعداً ، إذ لم يجد عن ذلك في الشريعة بدا ، فبادر - رضي الله تعالى عنه - لها مشمراً مجدداً ، وذكرنا الأوضاع النبوية ، ونبه على الطرق الشرعية ، وحض على المسالك الأخروية ، وخسّس تلك السير الجاهلية ، والسياسات الفاسقة

(1) سورة الفجر ، آيات رقم 27 - 30 .

(2) سورة يوسف ، آية رقم 53 .

(3) كذا ، وهي تحتل وجهها من التأويل ، يعني يستبدوا بهم ، وقد تكون تحريفاً للفظ

« يستبدوهم » .

(4) سورة الكهف ، آية رقم 17 .

الدنياوية ، فأعانتته الحكمة الإلهية ، ⁽¹⁾ وأتى في ذلك بالعجب العجيب ، والأمر الغريب ، والله عز وجل يؤيده وينصره ، ويصرف إليه نفوس أهل التوحيد ويظفره ، حتى أعلى به كلمة أهل التوحيد ، وجعله رحمة لقوم مؤمنين ، وأتاح له من الظهور ، ^[22 أ] والسنا المشهور ، ما ملأ الأقطار البسيطة واستوفاه ، وأوفى * بالأمنية على منتهاها ، والأمر حتى الآن ينساق ويتصل ، ويطرود ولا ينفصل ، وكل ما جاء به هو الذي ندب إليه جده صلى الله تعالى عليه وملائكته الكرام وسلم . أيها الناس ، فليس هذا قد جاء بهدى ؟ فهو مهدي حقيقة ضرورة .

فقلت الأمانة :

- بلى ، سلمت ، وألقيت بيدي إليك في البيان واستسلمت ، ⁽²⁾ فكيف هو إمام أول ، وملك على الإطلاق ؟

قالت المطمئنة :

- أليس القول قد تواتر عندنا أنه آثر ما ينبغي أن يؤثر ، واجتنب ما ينبغي أن يجتنب ؟ وهل تحصل هذه الخصال لإنسان حتى يعرف الفضائل التي هي فضائل بالحقيقة حق معرفتها ، ويعود نفسه أفعالها حتى تصير له هيئة وملكة ، ويعرف الفضائل ثلاثة حسبا قد تبين في كتابنا في « الفضيلة والرياسة » ؟ وهل تصح المعرفة بهذه على وجهها إلا لمن عرف مراتب الموجودات ، وله قدرة على إنزال كل شيء منها منزله وتوفيقه حقه ، حقه الذي هو قسطه ورتبته ⁽³⁾ من مراتب الموجودات ؟ وهل يمكن ذلك حتى يعلم السعادة القصوى بالحقيقة ما هي ، ويحصل أفعالها كلها لتحصل له السعادة ، وتديروا الناس تديراً يحصل لهم به السعادة ؟

وإذا نحن تأملنا أفعال المهدي رضي الله تعالى عنه في خاصة نفسه المتواترة عندنا وجدناها فضائل بالذات خافية ، وإذا تأملنا تديروا للناس وجدناه كله

ينحو نحو السعادة الحقيقية ، فهو عارف ضرورة بالمهنة الملكية ، وبالفضائل * ⁰¹ العملية ، وإذا تأملنا تواليفه في العلوم وأغراضه وإغماضه - كما حكى لنا عنه أنه ذكر له أمر الرجل المعروف بالغزالي - كان - ، فقال : « ذلك الرجل قرع الباب ولم يفتح له ! » ، أو « ولم يؤذن له » أو « ولم يلج » ، حسبا قال باختلاف الروايات عنه - وماشاكل هذه الأغراض السنية الرفيعة التي لا تصدر إلا عمن استولى على المعارف النصرية ، ⁽¹⁾ وتواليفه تشهد لنا بحقيقة هذه القضية ، فإذا هو عارف بالفضائل الفكرية ، والفضائل الخلقية ، وهذا هو الإمام الأول الذي يستحق أن يكون ملك المعمورة الكونية ، وارتفعت درجته عن أن يكون خادماً لشيء من الأجزاء المدنية ، بل مدبراً لكل ، حتى تحصل للناس السعادة الحقيقية . ذلك هو الفوز العظيم !

وهذا هو الإمام الأول على الإطلاق ، أي يستحق أن يكون ملك الناس أجمع بالواجب والاستدلال ، ⁽²⁾ إذ عنده صناعة الملك ، وتدير المدن قولاً وفعلًا ، لا يفوته شيء من ذلك أصلاً ، اتفق أن أطاعه ناس أم لا ، وهو في ذلك كالطبيب العارف بصناعة الطب ، فهو طبيب في الحقيقة وإن لم يستفته ناس * ¹ ولا عالج مريضاً ، هذا هو الحق في نفسه .

ولما رأى أقوام ألا ⁽³⁾ يوقعوا اسم الملك على من لم يكن مطاعاً في مدينة ، وآخرون يضيفون ⁽⁴⁾ إلى ذلك القهر والتخويف - قلت إنه ملك على الإطلاق ، أي على كل جهة من الوجوه ، إذ كان رضي الله عنه مطاعاً يقهر الظالم ويخوف الفاسق ، ولما كانت هذه اللفظة - أعني « على الإطلاق » - تقع على معنى قولنا « على التحقيق » وتقال على أنحاء شتى منها هذان النحوان : ⁽⁵⁾ أنه ملك على

(1) لعلها : النظرية .

(2) في الأصل : والاستهلاك ، ولعل الصواب ما أثبتنا .

(3) في الأصل : لا .

(4) في الأصل : يصيغون .

(5) في الأصل : هذين النحوين .

(1) في الأصل : الإلهية .

(2) في الأصل : واستلمت .

(3) قد تكون أيضاً : ومرتبته .

التحقيق ، وعلى كل جهة أيضا - فإذا قد صدق القول في المهدي إنه - رضي الله تعالى عنه - مهدي على الحقيقة ، وإنه ملك على الإطلاق ، وإمام أول .

قالت الأمانة بالسوء :

- لا جرم ما قضى به الحق تبين ، فانقدت لذلك وأذعنت ، بيد أنه بقيت واحدة ، فأنى لك بها ؟ وكيف أنقاد لك فيها ؟ وهي قولك : إنه ⁽¹⁾ الذي بشر به صاحب الشريعة صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم ؟

قالت المطمئنة :

- الآن تقهرك الحجج ⁽²⁾ الشرعية ، وتبهرك الأقاويل المقنعة الحقيقية : أليس أيتها الأمانة بالسوء ⁽³⁾

[قالت الأمانة بالسوء ⁽⁴⁾ :

- بلى !

قالت المطمئنة :

- ورسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي * يوحى ؟ ⁽⁵⁾ [23 ب]

فقالت الأمانة بالسوء :

- بلى !

قالت المطمئنة :

(1) في الأصل : إن .

(2) في الأصل : الحجاج .

(3) يظهر أن كلمات سقطت من هذا الموضع على الرغم من أن الناسخ لم يترك في موضعها

ببعضها .

(4) زيادة يقتضها السياق .

(5) إشارة إلى الآيات القرآنية « وما ينطق عن الهوى .. الخ » ، سورة النجم ، آية رقم 3-4 .

- فليُنظر الآن أوصافه - عليه الصلاة والسلام - للمهدي الذي بشر به أنه يكون في آخر الزمان ، فإن صدقت تلك الأوصاف على المهدي أئى عبد الله محمد بن عبد الله - رضي الله تعالى عنه - لزمك أن تنقادى إلى الحكم بأنه المهدي الذي بشر به رسول الله صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم .

فقالت الأمانة بالسوء :

- لا أسلم لك نتيجة هذا القياس ، إذ ليست ضرورية ، ولا أصفقا عليها إصفاقا ، وعسى أن تكون تلك الصفات اتفقت فيه اتفاقا ، ثم إن المهدي المبشر به الحامل لتلك الصفات سيأتي في المستقبل ، فأنى لك أن هذا هو المبشر به المنتظر المؤمل ؟

قالت المطمئنة :

- هيات ! قد تناقضت أيتها الأمانة بالسوء ولم تشعرى ، وكفرت من حيث لم تدبرى ! وذلك إذ ⁽¹⁾ قلت « وعسى أنه اتفق » إن وجدت فيه صفات المهدي ، فليس هو أحق أن تقولي فيه هذا من أن تقولي في الذي يأتي في المستقبل على ظنك الردى ، وكذلك إلى غير * نهاية ، ولا أمد أقصى ⁽²⁾ ولا غاية ، ⁽³⁾ فإذا قد بشر رسول الله صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم بما لا يعرف أصلا ، فإذا لم يخبر عن معنى مفيد بل قال قولا بشارته باطلة إذ لا يتوصل إلى حقيقتها فادن - فضلا ، ⁽³⁾ - وهو إنما بشر بشيء له عنده معنى - فإذا به ينطق عن الهوى ، وقد سلمت أنه لا ينطق عن الهوى ، ومن قال إنه ينطق عن الهوى فقد كفر قطعا ، عقلا وشرعا ، فإذا بك كما قلت تناقضت من حيث لم تشعرى ، وكفرت من حيث لم تدبرى ! وما مثلك عندي إلا مثل يهود الذين قال الله تعالى

(1) في الأصل : إذا .

(2) في الأصل : أقصى .

(3) كذا في الأصل : ولم تهتد إلى وجه في تأويلها .

فيهم » وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ⁽¹⁾

وذلك أن يهود كانوا أهل كتاب وعلم ، وكانت الخزرج أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانت يهود معهم في بلادهم ، وكانوا قد غزوهم بها ، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم : إن نبيا مبعوث الآن ، قد أظلم ⁽²⁾ زمانه ، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم . فلما بعث الله تعالى رسول الله صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم وعرفوا صفته واسمه وزمانه الذي كانوا يتوكلون عليه ⁽³⁾ عتوا على الله وأنكروا وقالوا : ليس هو هذا ، وإنما يأتي في المستقبل ! - أو كما قالوا - فكفروا ، ألا لعنة الله على الكافرين .

وكذلك مثلك * أيتها الأمانة بالسوء مع المهدي رضي الله تعالى عنه .
[24 ب]
قالت الأمانة بالسوء :

- صدقت ، وبالحق نطق ، فقد انقذت في ذلك إليك ، والآل بقيت واحدة : عليك أن تذكر لي الصفات التي وصف بها النبي صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم المهدي ، ثم ننظر : هل تصدق على المهدي المذكور ؟ فإن صدقت أقررت بذلك ، وانقادت ⁽⁴⁾ الأمور لك .
قالت المطمئنة :

- أهلا وسهلا ! لقد قلت فأحسن قولاً .

ذكر الترمذي ⁽⁵⁾ في كتابه من طرق شتى عن النبي صلى الله تعالى

وملائكته الكرام عليه وسلم أنه قال : لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل ⁽¹⁾ من أهل بيتي ، يواطىء اسمه اسمي .

ومن طريق أبي هريرة : ⁽²⁾ لو لم يبق ⁽³⁾ من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يلي ... وصحح الحديث .

وذكر أبو داود ⁽⁴⁾ هذا الحديث من طرق كثيرة بزيادات في الحديث ، فمن زياداته : ... لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجلا مني - أو من أهل بيتي - يواطىء اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي . وزاد من طريق أبي بكر : ... يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت جورا ؛ ولم يذكر العرب في الملك .

وذكر أبو داود ⁽⁵⁾ عن النبي صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم * [25 أ] أنه قال : المهدي من عترتي ⁽⁶⁾ من ولد فاطمة رضي الله تعالى عنها .

وخرج أيضا عن علي رضي الله تعالى عنه أنه نظر إلى ابنه الحسن ، فقال رضي الله تعالى عنهما : ابني هذا سيد كما سماه النبي صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم ، وسيخرج من صلبه رجل يسمى باسم نبيكم ، يشبهه في الخلق ولا يشبهه في الخلق ، يملأ الأرض عدلا .

وذكر الترمذي ⁽⁷⁾ عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال : خشيانا أن يكون بعد نبينا صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم ، فقال : إن في

(1) في الأصل : رجلا .

(2) انظر هذه الزيادة في عارضة الأحوزي 75/9 .

(3) في الأصل : يبقى .

(4) انظر سنن أبي داود 207/2 - 209 .

(5) نفس المرجع 208/2 .

(6) في الأصل : عترتي .

(7) عارضة الأحوزي 75/9 .

(1) سورة البقرة ، آية رقم 89 .

(2) في الأصل : أضل .

(3) أي يتوقعونه وينتظرونه .

(4) في الأصل : وانقذت ، وقد تكون العبارة « وانقذت في كل الأمور لك » .

(5) انظر عارضة الأحوزي لأبي بكر ابن العربي الإشبيلي في شرح صحيح الإمام الترمذي (ط .

القاهرة سنة 1934) 74/9 .

أمّتي المهدي ، يخرج فيعيش خمسا أو سبعا أو تسعا - زَيْدٌ ⁽¹⁾ الشاك ، يعني الراوي - ، قال : وقلنا : ما ذاك ؟ قال : سنين . قال : فيجيء إليه الرجل ، فيقول : يا مهدي ، أعطني ! قال : فيحشى في ثوبه ما استطاع أن يحمله !

فهذه الصفات وصف بها رسول الله صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم ، ومواطأة اسم أبيه ، وأنه منه ومن أهل بيته وعترته ومن ولد فاطمة رضي الله تعالى عنها ، وأنه يعيش خمس سنين أو سبعا أو تسعا بعد خروجه ، وأنه يملأ الأرض قسطا وعدلا ، وأنها كانت قبل خروجه مملوءة ظلما وجورا ، * وأنه يأتي إليه الرجل فيقول : يا مهدي ، أعطني أعطني ! فيحشى في ثوبه ؛ وما قاله علي رضي الله تعالى عنه أنه من صلب الحسن ، يشبه النبي صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم في الخلق لا في الخلق ، والأمر محمول على أن ذلك إنما علمه من النبي صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم ، إذ ليس هذا مما يدرك بفكر وروية ، ⁽²⁾ إذ هو علم بمُعَيَّب .

فإذا كانت هذه الصفات عينها ⁽³⁾ عندنا ، ونظرنا هل تصدق على المهدي المذكور رضي الله تعالى فوجد القول قد توازن عندنا : أن اسمه محمد ، فقد واطأ اسمه رضي الله تعالى عنه اسم محمد رسول الله صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم - قلنا : هذه واحدة قد صدقت .

(1) روى الترمذي هذا الحديث عن محمد بن بشار عن محمد بن جعفر عن شعبة عن زيد العمي (بفتح العين وتشديد الميم) عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد الخدري عنه عليه السلام . والمقصود أن الشك في عدد تلك السنين إنما هو من قبل زيد العمي المذكور في السند . وأما زيد هذا فهو زيد بن الحواري البصري قاضي هراة (انظر الخزرجي : خلاصة تذهيب الكمال - ط . القاهرة سنة 1322 هـ . - ص 108) .

(2) في الأصل : ورؤية .

(3) في الأصل : عبيده .

ثم وجدنا القول قد توازن عندنا : أن اسم أبيه عبد الله ، فإن اعترض ملحد فإن التواريخ تشهد بأن عبد الله بن إدريس [بن إدريس] ⁽¹⁾ بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي رضي الله عنهم كان أميراً لبلاد السوس ⁽²⁾ الأقصى ، ولاشك أن الإمام المهدي رضي الله تعالى عنه من بجوحة بيته ، فقد صح أن اسم ⁽³⁾ أبيه عبد الله ، وأن تومرت لقب له ، فثبت أن له رضي الله تعالى عنه جدين : قريباً وبعيداً ، كل واحد منهما عبد الله ، والجد أب لا محالة . ولا منازعة في هذا بين العقلاء ، وقد واطأ ⁽⁴⁾ اسم أبيه اسم [أبي] ⁽⁵⁾ النبي صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم . قلنا : وهذه الثانية قد صدقت .

ثم وجدناه من ولد فاطمة رضي الله تعالى عنها ، فهو من أهل بيته صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم ؛ ومن عترته صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم ، إذ عترته أعم من ولد فاطمة رضي الله تعالى عنها ، إذ قد تقع على ذريته وعشيرته الأذنين ، قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه : نحن عترة رسول الله صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم التي خرج منها ، وبيضته التي تفقأت عنه ، ولأجل هذا قال رسول الله صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم بأثر قوله عن المهدي رضي الله تعالى عنه إنه من عترته إنه من ولد فاطمة ليرفع الإشكال ، ويزيل الاحتمال ؛ وهو أيضا رضي الله تعالى عنه من النبي صلى الله

(1) زيادة تقتضيها صحة الاسم ، إذ هو حفيد إدريس بن عبد الله مؤسس دولة الأدارسة الذي فر من وقعة فح قرب مكة سنة 169 ودخل المغرب الأقصى سنة 172 ، فبايعه أهل المغرب الأقصى واستقام له الأمر حتى توفي سنة 177 ، وخلفه ابنه إدريس الذي حكم حتى سنة 213 . أما عبد الله المذكور هنا فإنه من أبناء إدريس ، ولكنه لم يتول الأمانة (انظر السلاوي الاستقصا 1/171 ؛ ابن حزم : جبهة أنساب العرب ص 49 ؛ وابن الخطيب : أعمال الأعلام ، القسم المغربي ، الدار البيضاء 1964 ، ص 204) .

(2) في الأصل : السوسي .

(3) في الأصل : أحمد ، ولا معنى لها هنا ، ولعلها تحريف عما أثبتنا .

(4) في الأصل : وطئ .

(5) زيادة يقتضيها السياق .

تعالى عنه وملائكته الكرام عليه وسلم من وجه آخر ، وهو لقيامه بشريعته ودينه وسيرته ، كما تقول « أنا من فلان ، وفلان مني » أي أمرنا واحد وأغراضنا واحدة . [26 ب] فإن لفظة « من » ⁽¹⁾ مشتركة تقع على هذا النحو * وعلى النحو المتقدم ، وكلا النحويين من صفة المهدي رضي الله تعالى عنه ، إذ قام بشريعته ، وهو من أهل بيته ، قلنا : وهذه الثالثة أيضا قد صدقت .

ثم وجدناه رضي الله تعالى عنه إذ قام بشريعته وهو من أهل بيته قد عاش بعد خروجه تسع سنين على ما تواتر به القول ، وهي أحد ما شك فيه زيد ، فعلمنا أنه الحق ، فهي إذن التي أخبر بها النبي صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم ، إذ إنما يخبر عن الحق ، فإنه لا ينطق عن الهوى ؛ على أنه قد روى عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم قال : يكون المهدي في أمتي سبعا إن قصر ، وإلا فثمانيا وإلا فتسعا ؛ ⁽²⁾ فهذا حكم على التسع . قلنا وهذه الرابعة أيضا قد صدقت .

ثم وجدناه أيضا قد ملأ الأرض قسطا وعدلا حسبما تقدم القول في ذلك ، إذ كل بلد انقاد له فنظمته سياسته ، وحكمته إمارته العادلة ورياسته - أثبت فيه القسط بين الناس والعدل ، وتملك نفوس ساكنيها السكينة والفضل ، والبلاد في زمان تنقاد له طوعا وتنساق ، أو تنقاد إلى ملكه كرها وتنساق * وذاك بين محسوس لا مدفع فيه ، فإنه إذن قائم بأمره بعد وفاته ، فالحكم في ذلك حكمه في حياته ، وهذا بين ، قلنا : وهذه الخامسة قد صدقت .

ووجدنا أيضا الأرض حين أذن الله تعالى له بخروجه قد كانت امتلأت ظلما وجورا ، فقد كان للمثممين وغيرهم من الظلم والجور ما حصل من الشهرة والظهور ، أن كان غير خاف عند الخاصة والجمهور . وهذه السادسة قد صدقت أيضا .

(1) في الأصل : مني .

(2) انظر سنن أبي داود 208/2 ؛ وسنن ابن ماجه 518/2 .

ثم وجدناه أيضا أنه كان يأتيه الرجل فيطلب منه قوته ويناديه : يا مهدي ، أعطني أعطني ! الحديث أنه [لا] ⁽¹⁾ يأتي إليه رجل واحد ومشار إليه حتى تكون الألف واللام للعهد ، إذ لم يتقدم ذكر لرجل ما ولا عرف به صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم ، فهي إذن للجنس فإذا معنى الحديث أنها سيرته ، فإنه من أتى إلى ذلك فقد أتى إليه حسبما تقدم القول فيه ، فيقول : يا مهدي ، أعطني . وإن لم ينطق بذلك لسانه فهو يقوله بضميره ، والقول في الحقيقة هو في الذهن حسبما تبين في الصناعة التي شأنها أن يتبين فيها . « فحشى في ثوبه ما استطاع أن يحمله » أي ما استطاع أن يحمل مما هو له عدل وقسط ، فهو قد بالغ في إعطائه إذ لم ينقص ⁽²⁾ له من حقه شيئا . وذلك هو الذي يستطيع ثوب المؤمن الموحد أن يحمله ، فإن الزيادة على العدل ظلم لا يستطيع ثوب المؤمن الموحد أن يحمله . وقد يحتمل أن يحمل الحديث على ظاهره . وقد جاء أن ⁽³⁾ المهدي * رضي الله تعالى عنه قد فعل ذلك إذ أفاء الله تعالى عليه رغائب الأنفال ، واملأت أيدي الموحدين من أموال أهل الضلال ، وفعل ذلك جائز للإمام ، وكان رضي الله تعالى عنه أعلم الناس بالحلال والحرام ، والتأويل الأول أحسن ⁽⁴⁾ قلنا : وهذه السابعة قد صدقت أيضا .

وما قاله علي رضي الله تعالى عنه أنه من صلب الحسن رضي الله تعالى عنه ، يشبه النبي ﷺ في الخلق ولا يشبهه في الخلق ، فهذه الصفات الثلاث صادقة على المهدي رضي الله تعالى عنه ، إذ هو من ولد الحسن رضي الله تعالى عنه حسبما ذاع واشتهر ، واستفاض وظهر .

(1) زيادة يقتضيها السياق .

(2) في الأصل : تنقص .

(3) في الأصل : ويوجد .

(4) في الأصل : حسن .